السّيمائيات في تفكير عبد الملك مرتاض، رصدٌ للإجراءات والأبعاد التّداوليّة

The Semiotics in thinking of AbdelmalekMortad, an observation of the procedures and the pragmatics dimensions

عبد الله مخطاري
جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف (الجزائر)،ah.mokhtari@univ-chlef.dz

تاريخ الاستلام: ../../2021 تاريخ القبول: ../../2021 تاريخ النشر: ../../2021

ملخص:

نسعى من خلال هذا البحث إلى رصد العلاقات السّيمائيّة التي يعتمدها النّاقد الجزائريّ عبد الملك مرتاض في تحليل النّصوص الأدبيّة، مع شرح ماهيّتها وآليّة تفعيلها، وذكرِ الشّروط التي ينبغي توفّرُها من أجل منحها فعالية كبيرة في مكاشفة النّصوص الأدبيّة، كما نسعى إلى الوقوف على طبيعة العلاقة بين السّيمائيّات والتّداوليّة من أجل تحديد نقطة التّقاطع بينهما وثمرة هذا التّقاطع في دراسة النّصوص الأدبيّة، وقبل كلّ هذا سنُعرِّج على المصطلح لعرض الضبط الذي اقترحه عبد الملك مرتاض بغية تخليصه من الفوضى ومنحه شيئا من الدقّة في الإطلاق والاصطلاح.

كلمات مفتاحية: السّيمائيّات، التّداوليّة، عبد الملك مرتاض، التّأويليّة، التّشاكل، المُمَاثِل.

Abstract:

Through this research, we seek to monitor the semiotic relationships which the Algerian critic AbdelmalekMortad relies on it in the analysis of literary texts, with an explanation of what it is and the mechanism for activating it, and mention the conditions that must be met, in order to make it highly effective in revealing literary texts, we also seek to identify the relationship between semiotics and pragmatics, in order to determine the point of intersection between it, and to determine the result of this intersection in the study of literary texts, and before all of this, we will discuss the term, to present the adjustment proposed by AbdelmalekMortad, in order to rid it of clutter and give it a bit of precision.

Keywords: Semiotics, pragmatics, AbdelmalekMortad, Hermeneutics, Isomorphism, Icône.

المؤلف المرسل*

1.مقدّمة:

تُعتَبَر السّيمائيّات حقلًا معرفيًّا زاخرًا بالمفاهيم المتعالقة فيما بينها وفق علاقات شديدة الدقّة والعمق، والتي تتظافر جميعها بغية الإحاطة بما تيسّر من الأبعاد التي تتّخذها العلامات اللّغويّة التي هي الوحدات الأساسيّة التي تُبْنَى بها النّصوص، وهو ما جعل السّيمائيّات صالحة لاستخدامها كمقاربة نقديّة -أو قُل كمنهج نقديّ ولا حرج في ذلك- لدراسة النّصوص الأدبيّة وسَبْرِ أغوارها العميقة البعيدة، انطلاقًا من بنياتها السّطحيّة، وممّا أكسبها فعالية أكبر تقاطعها مع مختلف المقاربات الأخرى التي من بينها التّداوليّة، هذه الأخيرة التي نجحت السيمائيّاتُ في اتخاذها كإجراء ينضوي تحت لوائها، فَسَخَّرَتْهَا لخدمة الغاية الكبرى التي تسعى إليها، وهذا كلّه جعل الكثير من النقّاد ينكبّون على المنهج السيمائيّ لاستكناه قدراته النقديّة من أجل تطبيقِها وكذلك تطويرِها وتعزيزِها بما يكون له أثر إيجابيّ على الوسيلة والغاية، ومن هؤلاء النقّاد نجد عبد الملك مرتاض الذي كانت له إسهامات في هذا المنهج نظرًا لاعتماده عليه بشكل كبير في دراساته النّقديّة، مسّت المصطلح والإجراءات والعلاقة البينيّة الجامعة بين السيمائيّات والتّداوليّة.

2.مصطلح السّيمائيّات (Sémiotiques):

لم يسلم مصطلح (Sémiotiques)من الفوضى، فتعدّدت ترجماته العربيّة تعدّدا مَشِينًا، وقد أحصى منها يوسف وغليسي ستّة وعشرين ترجمة مقابلة للمصطلح (Sémiotique)، وخمسة وعشرين ترجمة مقابلة للمصطلح (Sémiologie)(وغليسي، 2015م، الصفحات 101-107)، غير أنّ الترجمة التي شاعت بين النقّاد المعاصرين هي (السِّيْمِيَائِيَّات)، وممّن تبنّاها سعيد بنكراد(بنكراد، 2012م)، لكنّ عبد الملك مرتاض اختصرها بحذف الياء التي بعد الميم تخفيفاً لنطق هذا المصطلح "حتّى لا تتقطّع به حبال الحَنجَرة، ويغصّ به النّفس"(مرتاض، قضايا الشعريّات، 2009م، صفحة 19)، وهو الإطلاق الأسْلَم؛ لأنّه يمنع التقاء السّاكنين -سكون الميم وسكون الياء التي قبلها- وهو ما من شأنه أن يجعل المصطلح أكثر فصاحة لتوافقه مع مقتضيات الفصاحة العربيّة.

أمّا من جهة المعنى فيحتفظ هذا المصطلح بالمعنى نفسه، وإن كان الاختلاف الحاصل ليس مقتصرًا على المصطلح وحده، بل حتّى المفهوم العام للسّيمائيّات أصابه اختلاف؛ ذاك أنّ "السّيميائيّات علم واسع، وشامل، وجامع في طيّاته لكثير من العلوم، ولذلك... فإنّه من الصّعب جدّا وضع مفهوم محدّد

المؤلف المرسل*

للسّيميائيّات"(الأحمر، 2010م، صفحة 16)، إلّا أنّ ما يكاد يتّفق عليه النقّاد -خاصّة الغربيّون- هو أنّه العلم الذي يدرس العلامات أو السّمات بكلّ بحوثه المتمحّضة للحقول الخاصّة مثل الأدب والسينما والإشاريّة، وهلمّ جرّا، مع تسجيل محاولة هنا من عبد الملك مرتاض لحلّ معضلة ازدواج المصطلح؛ إذ سعى إلى التفريق بين المصطلحين (Sémiotiques) و(Sémiologie) بتخصيص المصطلح الأوّل للمعنى الذي سبق، وجعل المصطلح الثّاني متمحِّضًا للنظريّة العامّة لكلّ هذه السّيميائيّات، مع مقابلته بمصطلح (السّيميائيّة) إفرادًا وليس جمعًا للتّمييز بين المصطلحين، وعبد الملك في هذه الرؤية يوافق النّاقد الغربيّ قريماسGreimas(مرتاض، مائة قضيّة وقضيّة، 2012م، الصفحات 378-385)، "على أنّ علماء العلامات -في مجملهم- كثيرا ما يرادفون بين المصطلحين، ويتساهلون في استبدال أحدهما بالآخر، ولا يتقيّدون بما بينهما من فروق"(وغليسي، 2015م، صفحة 100)، وقد يكون ذلك عن تساهل فعلًا، نتيجة عموم مصيبة الفوضى التي وقع فيها المصطلح، وكما يقال: المصيبة إذا عمّت خفّت وهانت، وبذلك تدفع إلى التّساهل، ولكن قد يكون كذلك عن جهل بالفروق.

3. علاقة السّيميائيّة بالتّداوليّة في منهج عبد الملك مرتاض لدراسة النّصوص الأدبيّة:

يَعتبر عبد الملك مرتاض التّداوليّة رافداً من روافد القراءة التحليليّة السّيميائيّة للنّصوص، إذ نُلفيه يتحدّث عن هذه العلاقة، فيشرح كيف تُوَظَّف وتشتغل التداوليّة في حقل السّيميائيّة، فيقول عنها إنّها: "من إجراءات القراءة التّحليليّة السّيميائيّة للمَلافظ التي هي الوحدات الصغرى للنّصّ، أو للخطاب، ويأتي هذا الإجراء -الذي يرقى إلى مستوى المفهوم- لاحقاً، أو ملازما للقراءة التي تقوم على دلالة المعاني في النّصّ، فتذهب في تحليل عناصر ذلك بعيدًا، فتلتمس كلّ الاحتمالات التي يمكن أن يُشعّ بها الملْفِظ"(مرتاض، مائة قضيّة وقضيّة، 2012م، صفحة 195)، وهكذا فإنّ الدّارس الذي يطبّق المنهج السّيميائيّ، وهو بصدد تحليل نصّ ما، عليه أن يركّز اهتمامه على الكلمات والحروف، بما فيها حروف المعاني وحروف المباني؛ أي على أصغر الوحدات الدالّة، وكذا أصغر الوحدات غير الدالّة، باعتبار هذه الأخيرة تشتمل على الجانب الصّوتيّ الذي تُعنى بدراسته السّيميائيّة أيضا، ولذلك نجد من مستويات الدّراسة في منهج عبد الملك مرتاض "سيميائيّة الألوان والأصوات"، فيأتي الدّارس إلى النصّ الذي عدّه أحدهم "نزهة يقوم فيها المؤلّف بوضع الكلمات ليأتي القرّاء

المؤلف المرسل*

بالمعنى"(إيكو، 2004م، صفحة 22)، فيفكّكه إلى تلك الوحدات التي هي عبارة عن علامات، ويقوم بدراسة مضامينها ومحمولاتها الدّلاليّة، فيفصّلها ويبيّنها، ويحاول الإمساك بتفرّعاتها ومراميها القريبة والبعيدة، مستخدماً في ذلك التّأويل القائم على الاستعمال المبتذل والنّادر وما بينهما.

وهذه الخطوة التحليليّة إمّا أن يكون تطبيقها بعد شرح وتفسير المعاني الكبرى للنصّ والوقوف عليها، ويُقصَد بالمعاني الكبرى هنا معاني الجمل والفقرات التي بثّها الأديب في نصّه، وإمّا أن يكون تطبيقها مواكباً ومسايراً ومتزامناً مع ذلك، وبتطبيق ما تَقَدَّمَ تكون السّيمائيّات التّداوليّة دراسةً "فيها يوضعُ الأدبُ، باستمرار، موضعَ الاختبار، وعلى هذا المستوى ينشُدُ الأدبُ تأسيس وظيفته الدّلاليّة بوصفه تركيبًا من العلامات والشّفرات، والنّماذج، وهاهنا يُثبت الأدب فضاءه وحدوده الخاصّة"(سلفرمان، 2002م، صفحة 112)التي ترسمها تلك السّمات المشكّلة لنصوصه، والغنيّة بمحمولاتها الدّلاليّة المكتسَبة من خلال الاستعمال.

إنّ التداوليّة التي اعتبرها عبد الملك مرتاض إجراء من إجراءات التحليل السّيمائيّ لا تقف من منظوره عند حدود الجملة، بل يمكنها تعدّي هذه الأخيرة إلى ما يجاورها، ابتغاء فهم السّياق الذي وردت فيه، حتّى يكون التّحليل أكثر دقّة؛ حيث نبّه إلى أنّ "إجراءات التداوليّة تُعنى أساساً بفهم الجملة الواحدة من الكلام فتذهب في البحث عن طبيعة وضعها، انطلاقاً من العناصر المعجميّة، إلى المؤشّرات النّظميّة، أو المعطيات السياقيّة"(سلفرمان، 2002م، صفحة 200)، وبالتالي تعطي التّداوليّة نظرة شموليّة عن الجملة المحلَّلة التي تحمل شحنة دلاليّة مفتوحة على التّأويلات؛ ذاك أنّها تبحث في العناصر التي تكوّنها، وفي العلاقات التي تربط هذه العناصر بعضها ببعض فتجعلها سبكًا واحدًا، وكذا في علاقة الجملة بالتركيب الكلّي الذي تأتي في سياقه.

تتقاطع التّداوليّة مع السّيمائيّة في كَوْن هذه الأخيرة تتعامل مع العناصر اللّغويّة كعلامات وجودها يدلّ على أمور غائبة، وهو ما يجعل التّداوليّة بحكم وظيفتها الإجراء الأنسب لمُكَاشَفَة تلك الأمور الغائبة أو الأبعاد المختفية، ويتمّ الوصول إليها إمّا لوجود علاقة تلازميّة وبديهيّة بين الحاضر والغائب، أو لوجود علاقة احتماليّة يتوقّعها المحلِّلُ من خلال التّأويل والخيال الواسع، فالسِّمَة تعني "أنّ عنصر (أ) الذي يكون ذا طبائع مختلفة، يحلّ محلّ عنصر (ب)"(مرتاض، نظريّة النصّ الأدبيّ، 2015م، صفحة 150)، أي أنّ الشّيء الحاضر يمثّل شيئا

المؤلف المرسل*

غائبًا، وبالتّالي يكون الأوّل ناقصًا في ذاته فيُكْمِلُهُ الثّاني عندما يأتي به النّاقد أثناء التّحليل، وهو نقصان غير معيب، بل طبيعيّ؛ لأنّ الأديب عندما يوظّف سمة ما فهو يعتقد في نفسه بأنّ القارئ يفهم المدلول الغائب تلقائيًّا وبديهيًّا، وأحيانًا ربّما يتعمّد إخفاءه حتّى لا يكون النّصّ مفضوحًا فيموت بمجرّد كتابته، وحتى يبقى حيًّا مفتوحًا على باب الدّراسة والتّحليل والتّأويل، إلّا أنّ عبد الملك مرتاض ينظر إلى قضيّة حضور السّمات وغياب بعض ما تُحِيل إليه بشيء من الحذر؛ إذ يُخيَّل إليه أنّ "من السّمات المحسوسة ما لا يَحْمِلُ معانيَ غائبة، بل يمثّل معانيها في نفسها؛ وإنّما قد يصدق ذلك على طائفة من السّمات الأخرى، المحسوسة والمجرّدة معًا، أو السّمات الغائبة الدالّة على معانٍ لا تُدرَك بالعين، ولكن بالذّهن، كالمعاني التي تجسّدها السّمات التّاريخيّة التي لا يمكن مشاهدتها"(مرتاض، نظريّة النصّ الأدبيّ، 2015م، صفحة 157)؛ ومقصوده من القول هو أنّ السّمات ليست كلّها ذات دلالات بعيدة مخفيّة، بل من السّمات ما لا تحتمل إلّا وجهًا واحدًا من التّفسير، وهو الوجه البيّن الظّاهر على السّطح، والذي يُدرِكُه الدّارسُ من أوّل قراءة بسيطة.

4. إجراءات المنهج السّيمائيّ لدى عبد الملك مرتاض:

1.4 المُمَاثِل:

يَأخُذ التّحليل السّيمائي اتّجاهًا ينطلق من سطح النّصّ إلى أعماقه البعيدة، كأنّما يغوص بِلَيْلٍ في بحر لُجّيٍّ في أحشائه الدُّرُّ كَامِنٌ، فيبحث عن اللّؤلؤ الذي يتشكّل داخل صدفاته! وكما يتحدّى الباحثُ عن اللّؤلؤ ثلاثَ ظلمات: ظلمة اللّيل، وظلمة البحر، وظلمة باطن الصّدفة، فإنّ النّاقد وهو يَتَوَغَّلُ ويَتَغَلْغَلُ في النّصّ مُسَائِلًا عناصرَه وتراكيبَه وسماتِه عن بنياتها ودلالاتها وباحثًا عن جماليّاتها، يتحدّى ظلمات مثلها في العدد: ظلمة السّياق الذي قيل فيه النصّ، وظلمة النّصّ نفسه، وظلمة أجزائه البسيطة والمركّبة التي تكوّنه، فيهدف إلى "اكتناه جدليّة الخفاء والتّجلّي وأسرار البنية العميقة وتحوّلاتها"(أبو ديب، 1984م، صفحة 8)، ولكي ينال مبتغاه وينجو من التّيه والضّلال، فلا يكون كحاطبٍ بلَيْلٍ، لابدّ له من نِبْرَاسٍ يُنير له طريق التّحليل فيهتدي به، ونِبراسه في هذا هو ما أطلق عليه عبد الملك مرتاض مصطلح (المُمَاثِل)، "ولقد كانت الغاية من استحداث إجراء المماثل في الفكر السّيمائيّ هي التّمكين لاستحضار شيء بعيد، أو غائب، أو متعذّر، أو خارجيّ، بما يطابقه -لا بما يشابهه-... إمّا بواسطة الإدراك البصريّ، وهو الأشيع في السّيمائيّة التّقليديّة، وإمّا الإدراك اللّمسيّ، وإمّا الشّمّيّ، وإمّا

المؤلف المرسل*

الذّوقيّ، وإمّا السّمعيّ"(مرتاض، التحليل السيمائي للخطاب الشعري، صفحة 18)؛ والمقصود بالمماثل هنا هو السّمة أو العلامة الحاضرة في سطح النّصّ التي ينطلق منها المحلِّل إلى العمق بحثًا عن الدّلالات التي تشكّل فهم النصّ ومَكْمَنَ جماليّته وعبقريّة صاحبه.

2.4القَرِينَة:

وبالإضافة إلى إجراء المماثل يعتمد عبد الملك مرتاض إجراءً آخر أطلق عليه مصطلح (القَرِينَة)، وهو يقوم على المبدأ نفسه؛ أي مبدأ الحضور والغياب، ويمكن تمثيله مثلا بالقول المشهور "لا دخان بدون نار"؛ فالدّخان والنّار مقترنان، وحضور الأوّل يؤدّي إلى إدراك الثّاني الغائب(مرتاض، التحليل السيمائي للخطاب الشعري، الصفحات 19-20)، والأمر نفسه لو وَصَفَ روائيٌّ حدثًا ما، وليكن مَثَلًا قوله عن إحدى شخصيّاتِ روايتِه بأنّها لبست معطفًا سميكًا ووضعت مظلّة ثمّ خرجت، فهذا يؤدّي بالقارئ إلى إدراك حال الجوّ بالخارج، وهي بلا شك برودة شديدة ومطر، فالوصف الأوّل قرينة لاصقة بالفهم الثّاني، وجودها يؤدّي إلى إدراك هذا الفهم.

3.4 التّشاكل والتّباين:

يعتمد عبد الملك مرتاض إجراءين آخرين في التّحليل السّيمائيّ للخطاب الأدبيّ، هما التّشاكل ويقابله التّباين، اللّذان "يشملان كلّ أنواع السّلوك، ومنها اللّغويّ"(مفتاح، 1992م، صفحة 31)، أمّا الأوّل فيُقصد به "إلى كلّ ما استوى من المقوّمات الظّاهرة المعنى، والباطنته، والمتمثّلة في التّعبير أو الصّياغة؛ وتأتي متشابهة مرْفولوجيًّا، أو نحويًّا، أو إيقاعيًّا، أو تراكبيًّا، عبر شبكة من الاستبدالات والتّباينات، وذلك بفضل علاقة سياقيّة تحدّد معنى الكلام"(مرتاض، التحليل السيمائي للخطاب الشعري، صفحة 14)، وأمّا الثّاني فيمكن استنباط المقصود به ممّا قُصِد به الأوّل؛ فنقول: إنّ المراد بالتّباين هو كلّ ما تخالف من المقوّمات الظّاهرة المعنى، والباطنته، والمتمثّلة في التّعبير أو الصّياغة؛ وتأتي مختلفة مرْفولوجيًّا، أو نحويًّا، أو إيقاعيًّا، أو تراكبيًّا، عبر شبكة من الاستبدالاتوالتّشاكلات، وذلك بفضل علاقة سياقيّة تحدّد معنى الكلام، وكأنّي بالنّاقد السّيمائيّ وهو يحلّل النّصّ وِفْقَ هذين الإجراءين ينظر إلى بنيته على كلّ المستويات فيقارن بين عناصرها -وعندما نقول عناصر هنا فإنّنا نقصد مكوّنات

المؤلف المرسل*

النّصّ سواء في حال الإفراد أو التّركيب- وما تقوم عليه "من ارتباطات تركيبيّة لوحدات ألسنيّة في ظلالها الدّلاليّة"(فيدوح، 1993م، صفحة 98)، وتكون بنيات تلك العناصر معايير لبعضها البعض، وتكون مُبرِزَةً لبعضها البعض كذلك؛ إذ لا يتبدّى التّشاكل بيّنًا واضحًا جليًّا إلّا بوجود التّباين، والعكس صحيح، بل إنّ من النّظرة المنطقيّة الفلسفيّة -والسّيميائيّة تقوم على هاتين المعرفتين كما تقوم على اللّسانيّات وحتى على شيء من العلوم الدّقيقة- لا وجود لأحدهما دون الآخر، فتُقَاسُ كلٌّ من تلك البنيات على الأخرى المكوّنة كلّها للبنية العامّة للنّصّ، ليُعْرَفَ إن كانت متشاكلة أم متباينة مع دلالة ذلك، وهو ما من شأنه أن يُبرِزَ بنويّة النصّ، سيميائيّته، فنّيّته، جماليّته، عبقريّته، وأدبيّته.

إنّ تَعَلُّم هذه المفاتيح واعتمادها للولوج إلى عالَم النصّ، لا يعني أنّ المحلِّلَ قد تَمَكَّنَ من النصّ وانتهى الأمر، بل إنّ هذا العالَم الرّحب الفسيح الذي يحوي مناطق واضحة وأخرى غامضة، أو قُلْ هذه اللّعبة -لعبة النّصّ- التي تختلف مراحلُها من حيث الصّعوبةُ والسّهولةُ، وتتعدّد عُقَدُها وألغازها وشِفْراتها، مرهونةٌ من أجل مكاشفتها مكاشفةً جيّدة بما "نتمتّع به من سعة التّجربة، أو ضيقها، أو عمق الثّقافة الأدبيّة أو ضحالتها، وكثرة التّعامل مع النّصوص الأدبيّة أو قلّتها... فالذي يتناول نصًّا أدبيًّا، لأوّل مرّة، لا يشفع له أن يكون قد تعلّم كلّ العلوم اللّسانيّة والسِّيمَاوِيَّة لكي يكتب تحليلًا جيّدًا"(مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعري، صفحة 8)؛ وبعبارة أخرى تَكُون الممارسةُ وكثرة الاطّلاع المُفْضِيَة إلى التّشبّع بالمعرفة الأدبيّة شرطًا أساسيًّا لبلوغ الجودة في التّحليل والبعد عن الرّداءة.

إنّ من طبيعة الدّراسة السّيميائيّة التّداوليّة أن تقوم على التّأويل في جوانبها التي لا تقوم على المنطق والبداهة والمسَلَّمات؛ ذاك أنّ أيّ ضَرْبٍ من القراءة الأدبيّة يَنْدَرِجُ "ضمن إجراءات التّأويليّة -أو الهرومينوطيقا- الشّديدة التّسلّط على أيّ قراءة نقرأ بها نصًّا أدبيًّا"(مرتاض، السّبع المعلّقات، 1998م، صفحة 5)، وبالتّالي يكون من المشروع التّساؤل عن مدى صحّة وحقيقة التّفسيرات والأحكام الوصفيّة التي يصل إليها المحلِّل، ولكن بمقابل ذلك يكون من التشدّد والتَّنَطُّع طَلَبُ الصِّحَّة والصّواب في مثل هذه الدّراسات؛ لأنّه من باب تحميل الشّيء ما لا طاقة له به، فهو طَلَبٌ لا تستطيعه هذه الدّراسة وما ينبغي لها؛ لأنّها تعتمد التّأويل كإجراء أساسيّ، والتّأويل يقوم على الاحتمال والتّوقّع استنادًا إلى معطيات معيّنة، وعندما يُقال "احتمال وتوقّع" فهذا يعني إمكانيّة إصابة الصّواب، أو مجانبته،

المؤلف المرسل*

وربّما الزّيغ والابتعاد عنه، "ومن الواضح أنّ من حقّ القارئ -المحلِّل- أن يؤوّل النّصّ المقروء على مَقْصِدِيَّةالناصّ، ولكن دون أن يدّعي أنّ تأويله يندرج ضمن حكم الصِحَّة، إذ لا يستطيع أن يبلغ تلك المرتبة من العلم إلّا إذا لابس الناصّ، وألَمَّ إلمامًا حقيقيًّا بأحداث التّاريخ التي تلابس النصّ والناصّ معًا، وعايش لحظة إبداع النّصّ، وتواجَدَ في مكانه، وساءلالناصّ شخصيًّا عمّا كان يقصد إليه من وراء نسج نَصِّه المطروح للقراءة... وهذا أمر مستحيل التّحقيق.. إنّ تأويلَ النصّ قراءة للتّاريخ، لا بحثًا عن الحقيقة، ولا التماسًا للواقع... ولا طلبًا للمَعيشِ بالفعل... ولكنّه إنشاء لعالَم جديد يُنْسَجُ انطلاقًا من عالَم النصّ من حيث هو نصّ، لا من حيث مَقْصِدِيَّةُالناصّ من حيث هو ناصّ"(مرتاض، السّبع المعلّقات، 1998م، الصفحات 11-12)، وهذا لا يُنْقِص من أهمّيّة المنهج الذي بين أيدينا شيئا، وليس ذريعة لأن يتمّ التّخلّي عنه أو الطّعن في صلاحه لدراسة النّصوص الأدبيّة والنتائج التي يتوصّل إليها أو ما شابه ذلك، بل هو على عكس ذلك، إضافة إلى أنّ قيامه على التّأويل يمنحه مساحة للإبداع النقديّ، ممّا يجعله إبداعًا على إبداعٍ، ومنطَلَقًا لإنشاء عَوَالِمَ نصّيّة أدبيّة يَسْرَحُ فيها القارئ بعقله وخياله ووجدانه مستمتِعًا.

إنّ مقدار الحرّية التي تُكْفَلُ للمؤوّل في تأويلاته، وإعفاءه إلى حدّ ما من تسليط سيف الخطأ والصّواب عليه، لا ينبغي أن يؤدّيَ به إلى اعتناق مَذْهَبِ التّكلّف والغلوّ في التّأويل، فالتّأويل ثلاثة أصناف: تأويل مُضَاعَف، وتأويل معتدِل، وتأويل ناقِص، أمّا الأوّل فهو تأويل متطرّف، ولا أَدَلّ على ذلك من قول أحد أنصاره: "إمّا أنّ النّقد لا يصلح لأيّ شيء... وإمّا أنّه يعني إمكانيّة قول أشياء عن المؤلِّف تجعله يتحرّك في قبره"(إيكو، 2004م، صفحة 172)، كنايةً عن الذّهاب بعيدًا في التّأويل إلى درجة استفزاز المؤلِّف حتّى وهو في قبره! أو عن مخالفة الحقيقة والمعقول ونقض نواميس الكون جِهَارًا نهارًا! كمن يزعم أن لا شمس في ظهيرةِ يومِ صيفٍ صائفٍ مع سماء صافية! وأمّا الثّاني فهو تأويل مقبول يستسيغه كلّ أو معظم من يتلقّاه، سواء أكان بسيطًا أو عاديًّا أو مُبْهِرًا، وأمّا الثّالث فيكون في موقع بين القبول والرّفض لثبات صحة بعض العلاقات والمعطيات المبنيّ عليها وانتفاء أخرى، ولا شكّ أنّ الصّنف الثّاني هو المصطفى والمبتغى.

5. خاتمة:

* التّداوليّة مفتاح من مفاتيح السّيمائيّة، بفضل الطّاقة التّأويليّة التي ترتكز عليها، فمن خلال التّداوليّة تتكشّف المحمولات الدّلاليّة للسّمات اللّغويّة التي تتّخذها السّيمائيّة -إفرادًا وتركيبًا- موضوعًا للدّراسة.
* المماثل، القرينة، التّشاكل، التّباين، علاقات يعتمدها المنهج السّيمائيّ وهو يَلِجُ إلى أعماق النصّ البعيدة انطلاقًا من سطحه، ولكنّها علاقاتٌ مَرْهُونَةٌ فعاليتُها بالممارسة وكثرة الاطّلاع المُفْضِيَة إلى التّشبّع بالمعرفة الأدبيّة لدى المحلِّل من أجل بلوغ الجودة في التّحليل والبعد عن الرّداءة، دون مطالبته بالصّحّة والصّواب المُطْلَقَيْنِ؛ لأنّ الأمر متعلّق هنا بالتّأويل.

ـ قائمة المصادر والمراجع:

- أمبرتو إيكو. (2004م). التّأويل بين السّيميائيّات والتّفكيكيّة. المغرب: المركز الثقافيّ العربيّ.
- سعيد بنكراد. (2012م). السيميائيّات مفاهيمها وتطبيقاتها. سوريا: دار الحوار.
- عبد القادر فيدوح. (1993م). دلائليّة النّصّ الأدبيّ. وهران: ديوان المطبوعات الجامعيّة.
- عبد الملك مرتاض. (1998م). السّبع المعلّقات. دمشق: اتّحاد الكتّاب العرب.
- عبد الملك مرتاض. (2009م). قضايا الشعريّات. وهران: دار القدس العربيّ.
- عبد الملك مرتاض. (2012م). مائة قضيّة وقضيّة. الجزائر: دار هومة.
- عبد الملك مرتاض. (2015م). نظريّة النصّ الأدبيّ. الجزائر: دار هومة.
- عبد الملك مرتاض. (بلا تاريخ). التحليل السيمائي للخطاب الشعري. اتحاد الكتاب العرب.
- فيصل الأحمر. (2010م). معجم السّيميائيّات. الجزائر: منشورات الاختلاف.
- كمال أبو ديب. (1984م). جدليّة الخفاء والتّجلّي. بيروت: دار العلم للملايين.

- محمّد مفتاح. (1992م). تحليل الخطاب الشّعريّ (استراتيجيّة التّناصّ). الدّار البيضاء: المركز الثّقافيّ العربيّ.
- هيو ج سلفرمان. (2002م). نصّيّات بين الهرمنوطيقا والتّفكيكيّة. المغرب: المركز الثّقافي العربيّ.
- يوسف وغليسي. (2015م). مناهج النّقد الأدبيّ. الجزائر: جسور.